التقرير اليومي

٢٠٠٧/٧/٢١

مختارات من الصحف ومراكز الدراسات الدولية

العلاقات الأميركية– السورية: البدايات المحتملة (الجزء الأول)

بقلم أنطوني كوردسمان؛ ٢٠٠٧/٧/١٩

سافرت مؤخراً الى سوريا مع إثنين من زملائي في CSIS، هما جون آلترمان وتوماس ساندرسون. وقمنا بذلك إثر دعوة من مركز الشرق في دمشق لمناقشة العلاقات الأميركية– السورية وإجتمعنا مع مستويات معينة من السوريين المهتمين بالتباعد والتوتر القائمين بين بلدينا. كما إجتمعنا أيضاً مع الرئيس الأسد ووزير الخارجية وليد المعلم.

وكما قد يكون متوقعاً، سمعنا الكثير حول وجهة النظر السورية بشأن الأخطاء الأميركية في المنطقة والخلافات السورية مع الولايات المتّحدة، لم يكن هناك من إختراقات أو رسائل مثيرة أو وعوداً عن نجاح مفاجئ في العلاقات الأميركية السورية. وإذا ما كان هناك من أمر، فهو الفهم السوري بأنّ إدارة بوش ليس لديها إهتمام جدي بالحديث مع سوريا وبأنّ أي تقدم سيحصل سيكزن بعد ترك هذه الإدارة الحكم. ولن أحاول الحديث بالنيابة عن زملائي، إلا أنّ وجهة نظري كانت بأننا واجهنا مشاكل جدية وخطيرة في علاقاتنا بخصوص سياسات سوريا تجاه لبنان، حزب الله وإيران.

وفي نفس الوقت، صدمت مرة أخرى بالحقيقة بأنّ سوريا لا تزال إحدى أكثر المجتمعات عصرية وعلمانية في الشرق الأوسط. فشعبها متعلم ومثقف جيداً في الغالب، وودودين دوماً تقريباً، وليسوا معادين لأميركا بالمعنى الواسع للكلمة. فالناس الذين تحدثنا إليهم أظهروا براغماتية ومرونة مهمة في وجهات نظرهم، كما أنّ السوريين شعب سهل التعاطي معه. وعلى خلاف بعض إيديولوجيات المنطقة، من الممكن أن يكون لدينا حوار حقيقي معهم.

كما صدمني بأنّ هناك مجالات عديدة حيث يوجد للولايات المتّحدة وسوريا مصالح مشتركة فعلاً، وقد يكونا قادرين على التحرك قدماً من دون حصول نوع ما من التحسن الرسمي في العلاقات. فمن غير الضروري أن يكون هناك "إختراقات" لصنع تقدم ما أو إنتظار مجيئ الإدارة المقبلة. بالواقع، إنّ الإنتظار حوالي عامين حتى تستلم إدارة جديدة الحكم ليس في مصلحة أي من الدولتين. فهناك حالة كبيرة جداً من اللا إستقرار في المنطقة؛ هناك مناطق عديدة جداً حيث لن يؤدي ترك الأمور فيها غير معدة أومهيأة سوى الى جعلها أسوأ.

ووفقاً لذلك، فإني سأدلي بإقتراحاتي التالية. وبقيامي بذلك، عليّ التشديد بأني أتحدث عن نفسي بالرغم أني إستخلصت بعض الأفكار من زملائي ومن السوريين الذين إلتقيت بهم. وبالتعبير الواسع، الأفكار الجيدة ستكون أفكارهم، وهذا طبيعي، أما السيئة فهي أفكاري.

تناسوا الإختراقات الرسمية، وركزوا على الخطوات العملية

إنّ الشرق الأوسط منطقة حيث تذكر الماضي فيه يعني تكراره دوماً تقريباً، وتكرار كل الأخطاء الماضية في العملية. فالعلاقات الأميركية– السورية صعبة وتعكس خلافات حقيقية. أما المشاكل، فليست، وببساطة، نتيجةً لسوء التواصل، ولن تقوم أية دولة من الدولتين، فجأة، بتغيير سياساتها الحالية ووجهات نظرها حول مصلحتها الوطنية. بالإضافة الى ذلك، فقد إرتكب كلا الجانبين أخطاء كافية في علاقته مع الآخر وفي نشاطاته في المنطقة. ولذلك، فإنّ التركيز على الأخطاء يمكن أن تنتهي، وببساطة، بإتهامات مضادة ومتبادلة.

ولن تقوم أي من الدولتين بتنازلات جدية للأخرى، أو التضحية بأولوياتها ووجهات نظرها بمصلحتها الوطنية. أما الضغوط الحالية على الولايات المتّحدة وسوريا، فلن تدفعهما للعثور على مقاربة جديدة ومثيرة لهيكلة علاقاتهما، كما لن تدفعهما للقيام بتنازلات. بالإضافة الى ذلك، فإنّ بناء الثقة المتبادلة، من حيث الفكرة، أمر ممكن لتحسين العلاقات، وهناك طرق قابلة للتطبيق لمواصلة العمل بالمصالح المشتركة، الأمر الذي سيستلزم وقتاً. وبإختصار، وبدلاً من المطاردة اللاعملانية، إكتشفوا المجالات حيث يمكن لكلا البلدين العمل بالتوازي وبطرق تخدم مصالحهما من دون تقديم تنازلات الواحد للآخر. إعملوا بشكل أحادي، إكتشفوا الخيارات من خلال ديبلوماسية المسار الثاني، وتناولوا قضية واحدة في كل مرة. إقبلوا الحقيقة بأنّ كلا الدولتين سوف تعمل أيضاً بطرق تعارضها الأخرى بها، ولا تضعوا شروطاً مسبقة تتطلب تغييراً مستحيلاً في السياسة.

مرتفعات الجولان

هناك مجال أساسي واحد لا يتطلب أي عمل رسمي من جانب الولايات المتّحد، والذي سيعزز، وببساطة، الخطوات التي سبق وإتخذها الرئيس الأسد. إنّ تعبيراً سورياً ثابتاً وواضحاً بالرغبة بسلام حقيقي مع إسرائيل في مقابل عودة مرتفعات الجولان لا يتطلب تنازلات من أي جانب من الجانبين. فما هو مطلوب حقاً هو الصبر، المثابرة، الشفافية والمرونة.

فسوريا وإسرائيل لديهما خلافات أكبر بكثير مما لدى سوريا والولايات المتّحدة. فإسرائيل تعتبر سوريا بمثابة تهديد مستمر وعاملاً أساسياً في حربها مع حزب الله الصيف الماضي. أما سوريا، فتعتبر إسرائيل بلداً محتلاً ذي حكومة ضعيفة ومنقسمة، وغير مستعدة بطريقة ما للحديث بسبب ضغوط مفروضة من قِبَل إدارة بوش. وسوف يستلزم الأمر بعض الوقت بالنسبة لإسرائيل لكي تتجاوب مع أية مبادرة سورية في هذا المجال، ولكي تختبر صدقهم وإخلاصهم. وفي نفس الوقت، لا تملك سوريا فرص وإمكانية الفوز وإستعادة مرتفعات الجولان بواسطة الحرب، كما ليس لديها أسباباً جيدة لتعزيز إستعدادها، على الدوام، للتوصل الى إتفاق ما. ومهما كان، أو لم يكن، من الحالة في الماضي، فإنّ سوريا بحاجة للتقدم الإقتصادي وللإستقرار أكثر مما هي بحاجة لتهديد خارجي، وهي تقوم بإتخاذ خطوات أولى هامة نحو التحرر والتطور الإقتصادي، لكن لا يمكنها النجاح بمستواها الحالي من الإنفاق العسكري، ومجتمعها نصف العسكري. وبإمكان سوريا إستفزاز إسرائيل أيضاً، لكن ليس بإمكانها محاكاتها، ولا شيء يمكن أن يكون أسوأ للبلدين أكثر من صدام يتصاعد الى حرب غير مقصودة، ولكن خطيرة.

وقد أوضح سوريون، من مستويات عدة، بأنهم شعروا بأنّ خطط السلام المطورة بظل إدارة كلينتون كانت تشكل ٩٠% من الحل، على الأقل. ولاموا إسرائيل ورئيس الوزراء باراك على فشل المبادرة، تماماً كما يلوم الأميركيون والإسرائيليون سوريا على ذلك. وهذا الأمر، على كل حال، بالكاد يكون هو الموضوع. فإذا ما إقتربت خطة موجودة ما الى هذا الحد من خدمة مصالح سوريا وإسرائيل الوطنية، فإنّ سوريا معنية بالمكاسب وذلك بالمثابرة عليها علناً، وليس بشكل إرسال إشارات رئاسية، أو إجراء محادثات سرية بين أفراد غير رسميين.

كما يمكن لسوريا أن تكسب كثيراً بشرحها، بدقة، أوجه الإتفاقية السابقة التي لا تقبل بها، وأن تكون مرنة بخصوص ذلك. وهنا، قد يتناول الباحثون السوريون المهمة بطرق لا تلزم الحكومة، ولكن تُظهر للإسرائيليين والولايات المتّحدة ما هي هواجس ووجهة نظر سوريا تماماً. كما سيكون من المنطقي وجود مرونة في العملية. ومع كل ما يتعلق بكلا الفريقين، تعتبر مزارع شبعا، في النهاية، قضية ليست ذات قيمة تاريخية أو إستراتيجية عملياً؛ فحقوق المياه تظل مسألة هامة، لكن الواقع هو أنّ إسرائيل لديها الآن المياه، أما سوريا فتجد مشاكل جدية في إستخدامها. كما أنّ تحلية المياه أصبحت مسألة تجارية كافية في إسرائيل ليخفض ذلك من بعض الضغوط الماضية. فالسلام لا يجب أن يكون تنافساً سخيفاً تتم إدارته بإسم الأمور التافهة والحوادث الماضية.

وبإمكان سوريا أيضاً أن تفاوض أحادياً، أو ثنائياً بشكل هادئ، على إجراءات بناء الثقة مع إسرائيل من مستوى منخفض. فمن المقلق بعمق سماع حديث الحرب من خبراء وصحافيين جديين في كلا البلدين. وعلى كل حال، يتحدث السوريون عن تدريبات إسرائيلية وعن عمليات دعم في الجولان وعن تهديد إسرائيل بالضرب هذا الصيف. كما هناك حديث إسرائيلي عن تدريبات سورية وعمليات شراء أسلحة لإستعادة الجولان، وبأنّ سوريا سوف تضرب. ولدى إسرائيل سبب كبير لتعلم بأنه لا يمكنها الإستفادة من حصولها على أراضٍ سورية أكثر. كما لسوريا سبب مساوٍ لتعلم بأنّ حتى المحاولة الأكثر حنكة وتعقيداً لإستعادة خاطفة لجزء من الجولان ستفشل بالتأكيد، تقريباً، على الأرض، وستُشرّع سوريا أمام هجوم سلاح الجو الإسرائيلي المتفوق بشكل هائل، وأمام القوة الصاروخية. فالمغامرات، الإستفزازات وعمليات الشراء الكبرى للأسلحة والألعاب العسكرية على مرتفعات الجولان لا تجعل الأمور إلا أسوأ بالنسبة لسوريا. وحتى لو كان بإمكان سوريا جعل الأمور أسوأ بالنسبة لإسرائيل في عملية التقدم، فإنّ هذا النوع من النصر "المخرَّب" لا يخدم أي هدف إستراتيجي.

فسوريا و/أو إسرائيل بإمكانهما إنجاز الكثير، وببساطة، عن طريق الإعلان علناً وبالتفصيل عن كل تدريب وتغيير في التسلح والقوات قرب الجولان. فكلاهما بإمكانهما الإستفادة بالحديث عن الطبيعة الدفاعية لأعمالهما. فعمليات الشراء الكبرى للأسلحة لم تعد سراً، كما أنّ الإعلان عنها وتفسيرها يمكن أن يساعد. وبإمكان الجهود المستقلة لتعزيز وضع العوائق أمام عمل المتطرفين في المنطقة أن تساعد، وكذلك تساعد الجهود السورية التامة بكبح ومنع حزب الله من العمل في أي مكان قرب الحدود السورية– الإسرائيلية– اللبنانية، إن لم يكن في أماكن أخرى أيضاً. وكعمليات "التخريب" الأخرى في هذه المنطقة، فإنّ القدرة على إستفزاز الشر لدى خصم المرء سينتهي دوماً، تقريباً، بجعل الأمور أسوأ بالنسبة للمُستفِز وكذلك المُستفَز.

التركيز على التطور الإقتصادي العلماني

لا يمكن للولايات المتّحدة إتخاذ أية خطوات عملانية في هذا المجال. وهناك، على كل حال، مجالات أخرى حيث يمكن لسوريا أن ترسل إشارات هامة للولايات المتّحدة تظهر بأنّ التطور حاصل في النظام، وبأنّ الحكومة تقوم بإتخاذ خطوات هامة لمساعدة شعبها. فسوريا لديها كل الأسباب المحتملة للمحافظة على إستمرارها بالإصلاح الإقتصادي والتحديث. فالأمن الإقتصادي والنمو يساعدان النظام كما يساعده إرسال الإشارات حول التقليل من حالة الفساد.

وكما كانت الصين ودولاً آسيوية أخرى قد أظهرت، فإنه من الأسهل بكثير إنتظار التطور السياسي عندما يستفيد الشعب من الإصلاحات الإقتصادية، وعندما تظهر الحكومة بأنّ بإمكانها القيام بتقدم كبير في هذا المجال. كما أنّ ليس هناك من طريقة أفضل لكبح نشاط الإخوان المسلمين والمتطرفين الإسلاميين أكثر من رفع مستوى العيش، التوظيف، وتوفير الفرص بدلاً من منعها أو إبطائها.

بالإضافة الى ذلك، كلما كانت سوريا أكثر حداثة وعلمانية، إقتصادياً، كلما كان لدى إسرائيل أسباباً أكثر للشعور بأنها قد تكون قادرة على التعامل مع دولة مستقرة وكلما كان من الأسهل على سوريا التعامل مع إنسحابها من لبنان وكان لديها دافع أكبر لتقدمه للعراق بالمجال التجاري، خطوط الأنابيب ومشاريع جريئة مشتركة. وكلما أصبح إقتصاد سوريا أكثر قوة وليبرالية، كلما كان الحافز المستقبلي للإستثمار الخارجي من جانب الإتحاد الأوروبي، الولايات المتّحدة ودول أخرى أكبر، وكلما أصبحت البنية التحتية السياحية ومدخولها أفضل.

أما بخصوص الإستثمار البديل في التسلح والقوات العسكرية، فلا يستلزم الأمر كثيراً من الوقت، أو الحساب، لنرى أنّ سوريا لا يمكنها، وببساطة، أن تكون منافسة في مضمار سباق التسلح الجديد. فسوريا بحاجة إلى تحديث بعض جوانب قواتها، وإنما بإمكان إسرائيل أن تتفوق عليها بإنفاق نسبته ٤ الى ١، على الأقل. ولدى إسرائيل القدرة على الوصول الى تكنولوجيا عسكرية أكثر تطوراً بكثير، وبإمكانها البدء بالسباق بقوات أفضل بكثير وبقاعدة تكنولوجية أكثر تطوراً. إنّ إشعال سباق تسلح لا يمكنك الفوز به هو بديل بائس للتقدم الإقتصادي الذي لا يمكن أن تخسر فيه.

محاربة الإرهاب في مصلحة سوريا الوطنية

لن تتفق الولايات المتّحدة وسوريا على تعريف للإرهاب في المدى القريب، تحديداً بخصوص أنشطة حماس وحزب الله. وعلى كل حال، فإن عدداً من السوريين كانوا قد أوضحوا بأنهم يرون بالتطرف الإسلامي السني تهديداً رئيسياً لسوريا، سواء كان ذلك في سوريا، العراق أو لبنان. وقد ذكر عدد منهم الإخوان المسلمين، وعناصر موجودة ضمن اللاجئين العراقيين، كمشاكل جدية وخطيرة.

إنّ عملاً سورياً عدائياً ضد متطرفين كهؤلاء هو في مصلحة سوريا ويتوازى، بشكل مباشر، مع مصلحة الولايات المتّحدة. وقد يكون التبادل والتعاون الإستخباري المحدود أمراً ممكناً، حتى ولو لم يكن التعاون الأوسع أمراً ممكناً. فالعمل الأحادي الجانب والقوي من قِبَل سوريا، والذي يصب في مصلحتها الخاصة، يؤسس لأرضية عمل لتسهيل العلاقات الأميركية والسورية.